جدلية العلاقة بين اللغة والهوية في ضوء التعدد اللساني وتكنولوجيا التواصل

Dialectical relationship between language and identity in the light of the multilingualism and communication technology

الطالب:كمال الدين عطاء الله
المشرف: أ.د عبد القادر شارف
جامعة حسيبة بن بوعلي –الشلف (الجزائر)

الملخص:

تتحاور هذه المقاربة مع موضوع هام ينطوي تحت عنوان عريض ارتبط بمفهوم جدلية العلاقة بين اللغة والهوية في ضوء التنوع اللغوي داخل المجتمع الواحد، والتطور التكنولوجي في ميدان التواصل؛ فقضية الهوية وعلاقتها باللغة هي من القضايا الهامة التي تثير جدلاً فكرياً ومعرفياً كبيراً، نظراً لما يحمله المصطلحين من مفاهيم وقيم.

وفي ظل العولمة الثقافية والغزو اللغوي الغربي للبلاد العربية أصبح من الواجب التصدي لما يمكن أنْ يهدد التركيبة القومية والثقافية والدينية للمجتمع العربي، هذا الغزو الثقافي الغربي للبلاد العربية هو نتيجة تفاعلات عدة؛ من بينها تأثير الاستدمار الغربي للبلاد العربية والذي ترك آثاراً سيئة ترسّبت في شكل استعمار لغوي أثر بشكل مباشر على هوية الانسان العربي الذي ما إنْ يبدأ في الكلام حتى يختلط خطابه اللغوي بلكنات ولهجات ولغات في ديغلوسيا تجعل المتلقي لا يدرك أصل انتماء المخاطِب.

وفي خضم كل هاته التراكمات، ونتيجة لتأثير تكنولوجيا التواصل على عقلية الأفراد وتفكيرهم، أصبح الحفاظ على الهوية واجباً وفرضاً، مع ما يواجه هذا الأمر من صعوبات على أصعدة مختلفة، فكرية، اجتماعية، دينية...؛ فالتكنولوجيا كرّست مبدأ لغة العالم، وتبنّت هاته الفكرة منظمات وجمعيات وأفراد على مختلف المستويات المعرفية والجغرافية والإيديولوجية، وأخذت على عاتقها تطبيق هذا المبدأ، ونادت بكسر حواجز الوطن والدين واللغة، وترسيخ مبدأ الانسانية (انسان، لغته :الانجليزية، انتماؤه :الأرض)، مع اعتماد مبدأ الاقتصاد اللغوي كوسيلة سهلة لتسريع وتبسيط التواصل.

وسيحاول البحث تسليط الضوء على تأثير و دور التعدد اللساني وتكنولوجيا التواصل في توسيع الهوة بين اللغة والهوية.

الكلمات المفتاحية :التعدد اللساني، تكنولوجيا التواصل، اللغة، الهوية، الدين، الواجب، العولمة الثقافية، الاستعمار اللغوي، المجتمع العربي، ديغلوسيا، لهجات، الفكر، الانتماء، الخطاب اللغوي، المعرفة، الاقتصاد اللغوي، الاستعمال اللغوي، الصراع اللغوي، الابتداع اللغوي، الازدواجية اللغوية، الوطن، الغزو الثقافي، العلاقة، المقاربة، الأمن اللغوي، جدلية.

Abstract :

This approach Interlocutes with an important issue involves under a headline has been associated with the concept of a dialectical relationship between language and identity in the light of the linguistic diversity within the same community, and technological development in the communication field; The issue of identity and its relationship with language is one of the important issues that give rise to an intellectually and cognitive debate, due to the importance of the terms and its concepts and values.

Within the cultural globalization and linguistic Western invasion of the Arab country became to be addressed what could threaten national, cultural and religious composition of the Arab community, this Western cultural invasion of the Arab country is the result of several interactions; including the impact of western colonialisation who left a bad deposited in the form of colonization linguistic impact directly on Arab human identity, which is to begin to speak until mixed his speech discourse with accent and dialects, and languages in Daglosaa make the recipient does not realize the origin of the speaker.

In the midst of all these circumstances accumulations, as a result of the impact of communication technology on the mentality of individuals and their thinking, it has become to maintain the identity of a duty and imposed, with this it is facing difficulties on different levels; intellectual, social, and religious ...; the technology is devoted the principle of "the language of the world", and adopted this idea organizations and associations and members of the different cognitive, ideological, geographical levels, and took it upon themselves to apply this principle, and called for a broken home, religion and language barriers, and establishing the principle of humanity (man, his language: English, affiliation: ground)with the adoption of the principle of linguistic economy as an easy way to speed up and simplify communication.

This essay will try to shed light on the impact of multi-lingual and communication technology in widening the gap between language and identity.

Keywords: multi-lingual, communication technology, language, identity, religion, duty, cultural globalization, linguistic colonialism, Arab society, Daglosaa, accents, thought, speech language, knowledge, linguistic economy, use of language, linguistic conflict, innovating linguistic , linguistic duality, Home, cultural invasion, the relationship, the approach, the linguistic security, dialectic.

مقدمة:

إنّ اللغة هي الوعاء الذي يحوي هوية مجتمع من المجتمعات، فعلاوة على أنها" أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"[1]؛ أي وسيلة يتواصل بها الناس في حياتهم، فهي من الناحية العلمية والفلسفية وسيلة لتلقي المعرفة مشافهة أو كتابة، يقول" سابير " "إنّ اللغة تتحكم كثيراً بأفكارنا المتعلقة بالمسائل الاجتماعية، ومِنَ الخطأ تصور أنّ الإنسان يتكيّف مع واقعه دون استخدام اللغة، أو أنّ اللغة مجرد وسيلة لحل مشاكل الاتصال والتفكير .إنّ العالم الواقع مبني بطريقة لا واعية على أساس عادات الناس اللغوية وعلى أساس استعمالاتهم للغتهم الأم"[2]، وهذا يعني أنّ اللغة هي وعاء الجماعة ولكل لغة أصول ومعايير، تعارف أهلها على صياغتها وتطوير استعمالها، حفاظاً على شخصيتهم الاجتماعية وعلاقاتهم التواصلية ووجودهم الجغرافي والحضاري.

وفي معالجتنا لموضوع علاقة اللغة بالهوية تستوقفنا مساءلات فلسفية حول طبيعة الموضوع، فهل هو على المستوى الأيديولوجي أم هو ذا عمق ميتافيزيقي، مما يجعل البحث يفرق بين الفرد من حيث انتمائه التاريخي لمجتمع من المجتمعات وانتمائه الطبيعي من ناحية أخرى؛ أي أنّ مسألة الانتماء (الهوية) تتعلق بالجانب التاريخي الحضاري وبالجانب الطبيعي الذي يحدد جنس البشر وأصلهم. فمنَ الناحية الميتافيزيقية يمكن رد الهوية إلى الطبيعة مع ما تمثله منْ رؤية فلسفية تعني ثبات هوية النوع البشري كالتناسخ عند سقراط والمثال عند أفلاطون والواقع عند أرسطو ووصولا إلى التطور عند داروين، كما أنّ قضية الهوية تطرح تساؤلا فلسفياً حول الفروق النوعية بين البشر من ناحية وبين الحتمية والاختيار من ناحية أخرى لكن بعيداً عن الصورة الثقافية الاختيارية.

إنّ ما يميّز الوطن العربي هو" الأحادية اللغوية "المتمثلة في اللغة العربية الفصحى، وفي الوقت ذاته يتسم بـ" تعدد اللهجات" وتباينها منْ منطقة إلى أخرى، حيث تظهر" الازدواجية اللغوية "في كل الأقطار العربية؛ هذه الازدواجية أنتجت صراعاً لغوياً بين الفصحى والعامية من ناحية، وبين الفصحى واللغة الإنجليزية المهيمنة تحت تأثير العولمة في بعض الدول العربية مثل دول الخليج والمشرق العربي، و الفرنسية المتجذرة نتيجة الإرث الاستعماري لدول أخرى مثل دول المغرب العربي؛ هذا ما أ ثّر سلباً على "الاستعمال اللغوي "في هذه البلدان وتأثيره على هوية المجتمع ككل، خاصة في ظل تكنولوجيا التواصل التي فرضت منطقاً جديداً يعمد إلى تهميش لغات الشعوب الضعيفة في مقابل لغات العالم القوي، إضافة إلى تشجيع عامل" الاقتصاد اللغوي " والذي خلّف بدوره تعاملا سلبياً مع اللغة العربية الفصيحة في مقابل العامية التي تأخذ حيزاً كبيراً

في التواصل الكتابي بخاصّة سيما فيما يسمى بـ"الرسائل القصيرة "على الهواتف المحمولة أو أجهزة الكمبيوتر المختلفة.

الانتماء المزدوج والهوية المركبة: تتقاطع اللغة مع الهوية باعتبارها شكلا منْ أشكالها و مقوماً منْ مقومات المجتمع الثقافية والعلمية، وتأخذ الهوية عدة اعتبارات ومفاهيم باعتبار الزمان والمكان والمجتمع والدين، فما هو متعارف عليه في عصرنا أنها تعني موطن الولادة الأصلي وهذا مجسّد– عالمياً في ما يسمى ببطاقة الهوية، إلا أنّ الواقع يثبت غير ذلك، بل إنّ ارتباط اللغة بالهوية له علاقة بالهوية الحضارية للفرد والمجتمع؛ فالاسكتلندي الذي يعيش في جغرافيا المملكة المتحدة لا يحس بأنه انجليزي رغم أنه يتكلم اللغة الانجليزية، فهو يشعر بهويته الاسكتلندية، والجزائري المولود بفرنسا منْ أبوين جزائريين يحس بالانتماء للجزائر أكثر من فرنسا، وحتى الفرنسيين الذين ولدوا في فترة احتلال الجزائر ينعتون في فرنسا بـ"الأقدام السوداء " ولا يعتبروا فرنسيون أصليون، واليهود عندما أرادوا استعادة هويتهم وأحسوا بتعدد انتماءاتهم الجغرافية رجعوا إلى مصادرهم التراثية وأخرجوا للعالم مدونة لغوية –العبرية– وهي اليوم لغة رسمية معترف بها في منظمة اليونسكو.

إنّ مصطلح الهوية متعدد الانتماء المعجمي، إلا أنه يرتبط باللغة ارتباطاً وثيقاً، والتاريخ يبين لنا أنّ الشعوب الغابرة اهتمت بلغاتها باعتبارها قضية وجودية لمستقبلهم الحضاري والثقافي؛ فهي رمز لهويتهم وحضارتهم ووجودهم، والنقوش التي تكتشف من يوم لآخر تثبت ذلك، مثل الكتابات الهيروغليفية التي ترمز للمصريين القدامى، كتابات" التفيناغ "التي اكتشفت قطعة منها حديثاً بالولايات المتحدة الأمريكية ترمز للأمازيغ، الكتاب المقدس عند الهنود" فيدا " يرمز لتاريخهم وحضارتهم الدينية واللغوية، مما يعني أنّ اللغة حاضنة للتراث الحضاري للشعوب، وهي بمثابة بطاقة تعريف لشعب من الشعوب، فنقول الياباني لأنه يستوطن أرض اليابان أين يتكلم شعبه باللغة اليابانية، ففي 1945 م عندما وقّع اليابانيون وثيقة الاستسلام مع الولايات المتحدة الأمريكية، وضع الطرف الأقوى بنوداً مهينة وافق وأمضى عليها اليابانيون إلا بنداً واحداً فقط اعترضوا عليه وهو بند استبدال اللغة اليابانية باللغة الانجليزية الأمريكية" American English " ، فقد احتفظوا بلغتهم وطوروا علومهم بها حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه اليوم من تقدم وعلوم، يقول ابن خلدون" : إنّ قوة اللغة في أمة ما تعني استمرارية هذه الأمة بأخذ دورها بين بقية الأمم ، لأنّ غلبة اللغة بغلبة أهلها ومنزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم"[3]؛ فاليابانيون أدركوا جيداً مكانة لغتهم كرمز أساسي لوجودهم، ولعلهم استغلوا ذلك خير استغلال عندما ركزوا على تطوير لغتهم واستثمارها في العلوم والمعارف مما جعل التجربة اليابانية من أقوى النماذج الحديثة في

صناعة النهضة الحضارية العالمية مع الإبقاء على الخصوصية الثقافية واللغوية للقومية اليابانية، ففي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي أصر اليابانيون على ضرورة التدريس باللغة اليابانية في كل المدارس العمومية والخاصة، النظامية الأكاديمية أو المتخصصة، كما قاموا بترجمة العلوم والمعارف الأجنبية إليها، واستطاعوا أنْ يقضوا على الأمية في ظرف وجيز، حيث تشير إحصائيات أنه في عام 1907 م أصبح 97 % من الشعب الياباني متعلماً، ثم تتابعت إنجازاتهم العلمية ومشاريعهم الحضارية ضمن سلسلة من النجاحات الباهرة، ولم تكن في كل ذلك اللغة الأجنبية عاملا في نهضة اليابان الحديثة؛ فالمتعلم الياباني يتأخر ترتيبه عالمياً في اختبارات مهارات اللغة الإنجليزية، ولم يكن الانفتاح على اللغات الأجنبية إلا في ظل العولمة والحاجة إلى المعلومات المتوافرة باللغة الإنجليزية مما جعل اليابان تتبنى سياسة تعلم اللغة الانجليزية للأغراض العلمية.

لقد أثبتت إحصائيات حديثة لمنظمة اليونسكو أنّ هناك 25 لغة تموت سنوياً، كما تشير الأبحاث العلمية من مجموع اللغات التي يقدرها الباحثون بحوالي 6000 لغة، والتي تتوقع الدراسات أن تختفي منها 3000 لغة مع انتهاء القرن الحادي والعشرين.

الازدواجية الثقافية: إنّ غياب الوعي بمسألة اللغة خلّف أزمة في الفكر العربي الذي يتخبط بين هويات ثقافية مختلفة أنتجتها الخلفيات الفكرية والثقافية ذات المرجعية الغربية، فأصبحت اللغة ليست ذلك القالب الذي تنسج فيه الابداعات الثقافية، وليست تلك الروح التي يتفاخر بها المجتمع، ولم تعد ذلك الحصن المنيع (السلاح اللغوي) الذي لطالما استخدمه البلغاء في عديد الأزمان تحقيقا لأمنهم الثقافي واللغوي والجغرافي. إذ يعتقد اليوم العديد من شباب الدول النامية أنّ استخدام لغة شعب متطور تجعل مستعملها متطوراً ومتحضّراً، وهذا ما نلمحه في استخدام الفرنسية والانجليزية، غير مبالين بخصوصية الهوية اللغوية، باعتبار أنّ اللغة إضافة الى دورها التواصلي فهي أيضاً رمز للثقافة والحضارة، وبالتالي تصبح اللغة شكلا رئيساً من مقومات الهوية الثقافية للفرد متعدد الثقافات. وقد ولّدت هذه الظاهرة " طبقية ثقافية " داخل المجتمع الواحد تحدد مكانة كل فرد بداخله؛ فالشخص الذي يتقن لغتين– مثلا – يقرأ ويكتب بهما، هو مجبر على تلقي ثقافتين، أو بالأحرى تجره الحتمية الثقافية إلى تبني أطر اجتماعية تحت تأثير هذا النوع من" الاستعمار الثقافي " الذي أضحى اليوم ملمحا من ملامح التحضر والمدنية عند شباب الدول النامية . لكن في المقابل نجد من كانت له ازدواجية ثقافية نظير دراسته في دولة أخرى تتكلم غير لغته، لكنها ذات تأثير تاريخي على بلاده بسبب الغزو الاستعماري لكنها لم تؤثر على هويته الصحيحة، وهذا ما نجده عند الأديب النيجيري الكبير" أجينو اتشيبي " المتحصل على

جائزة نوبل للأدب عن روايته المشهورة "تتداعى الأشياء" things tell a part "، فهو كتبها بلغة انجليزية باعتبارها أكثر لغات العالم استعمالا لكنه في نفس الوقت حاول أنْ يستخدم تلك اللغة ليوصل رسالته إلى أكبر عدد ممكن من المتلقين ليعبّر عن آلام شعبه والقضية الوجودية التي تحيط به، مدافعاً عن هوية شعبه إفريقيا وعالمياً، ثقافة ولغة ووجوداً.

التعدد اللساني: إنّ المتتبع للتركيبة الاجتماعية للمجتمع العربي يجد أنّ أزمة الهوية ارتبطت أساسا بأزمة اللغة تحت تأثير عوامل عدة متناقضة في جانب ومتلازمة في جانب آخر، فغالبية المناطق العربية تعرضت إلى غزو خارجي منذ العصور العربية الأولى إلى وقتنا هذا، هذا الغزو صاحبه أيضا اختراق للمنظومة اللغوية للعربية الفصحى إلا أنه لم يؤثر عليها في جوهرها بل بقي الاستعمال اللغوي الفصيح إلى سنين عقبت سقوط الأندلس وبالتالي انهيار آخر قلاع الحضارة الإسلامية في جانبه العلمي والحضاري. فقبل الإسلام وفي أيام المناذرة والغساسنة وغيرهم تأثر اللسان العربي قليلا باللسان الأعجمي نتيجة الوصاية التي كانت مفروضة من طرف الفرس والروم على البلاد العربية أين كانت تجارتهم وسياستهم ترتبط ارتباطاً مباشراً بهم، فدخلت بعض الكلمات إلى معاجم بعض القبائل العربية الفصيحة ووجدت تلك المفردات وجودها و ألْفتَها بين مفردات العربية، وبقيت كذلك إلى أن جاء الإسلام ولم ينكر ذلك بدليل أنه وردت في القرآن الكريم بعض تلك المفردات مثل لفظة (ضيزى) والتي اصطلح على تسميتها فيما بعد بغريب القرآن، لكن الملاحظ على هذه المرحلة أنه رغم كل تلك الظروف التي أحاطت بالمجتمع آنذاك إلا أنه بقي محافظاً على سلامة لغته التي كانت رمزاً من رموز القوة اللسانية والابداعية والثقافية والحضارية بالنسبة إليه. وجاء الإسلام وأصبح للغة العربية مكانة مقدسة باعتبارها لغة القرآن الكريم { **إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعْقلون**} [4]{ **وكذلك أنزلْناه قُرآناً عربياً** } [5] وأعجزت لغة القرآن حتى فصحاء العرب حين اعترف الوليد بن المغيرة عندما سمع أوائل سورة فصّلت من فِيهِ رسول الله صلى الله عليه وسلّم: بأنّ لقوله حلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أوله لمثمر وإنّ أدناه لمغدِ ق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه" وفي ظل نشر رسالة الإسلام كان النبي صلى عليه وسلم يرسل من يحسنون لغات الأقوام الذين يدعوهم لدين التوحيد برسالة مدونة بلغة عربية على أنْ يتولى الرسول ترجمتها شفهياً.

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم توالت الفتوحات تلو الأخرى أين اتصل المسلمون العرب بالعديد من الشعوب الأخرى ذات الأعراق واللغات المختلفة، دخلوا بلادهم ونقلوا علومهم إلى اللغة العربية، وتوسعت الدولة الإسلامية بدخول الأعاجم إلى الإسلام، فظهر مشكل" اللحن "

أين أصبحت بعض الألسنة من العرب" تنزاح "عن السلامة اللغوية، وخاصة عند قراءة القرآن الكريم، فعمد التابعين إلى ضبط القرآن بالشكل حفاظاً على لغة الفرقان، وتوالت بعدها الدراسات التي سميت ب"عصور التدوين" أين أسهم علماء أجلاء في تدوين اللغة العربية من أفواه الفصحاء من أهل البادية كي لا يضيع رمز هويتهم وحضارتهم، ومن هؤلاء نجد :الأصمعي، أبو عمرو بن العلاء وغيرهما، وتوسعت تلك الحركة إلى تدوين الحديث الشريف بعدما دلس اليهود و"نحلوا" في أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومن المدونين المشهورين الذين جمعوا الحديث الشريف :مسلم، البخاري، النسائي، الترمذي وغيرهم.

وتطورت العلوم في الدولة الإسلامية وترجمت مصنفات اليونان العلمية، وازدهرت الحركة العلمية خاصة في العصر العباسي، إلا أنّ ما يلاحظ على هاته المرحلة التاريخية وما سبقها من مراحل في تاريخ العرب أنّ اللغة العربية حافظت على مكانتها المقدسة والتواصلية، وبقيت سليمة ولم تنحط إلى دركة" العامية "رغم كل ما كان من تواصل علمي وحضاري وثقافي بين العرب والأمم الذين ارتبطوا بهم دينياً أو تجارياً.

وفي العصر الحديث أين تغيرت الشعوب وتغيرت ذهنياتها لمْ تعد اللغة ذلك التاج الذي يضعه أصحاب الألسنة فوق عقولهم، ولم تعد معايير اللغة تعني الكثير بالقدر الذي أصبح" الاقتصاد اللغوي "هو السبيل للتفاهم أو بالأحرى لإقامة علاقة تواصلية سريعة مع الآخر، فظهرت فئات من مختلف شعوب العالم تحت غطاء العولمة، تبنوا واحدية اللغة العالمية، ووطنهم هو الكرة الأرضية بأيديولوجية تعني" إنسان، وطنه :الأرض :لغته :الإنجليزية"، مع العلم أنّ غالبية أعضاء هذه الفئة هم من العرب، وهذا لعَمْري أمر في غاية الخطورة.

لقد زهد أبناء العربية في لغتهم وطغت العامية على الاستعمال الفصيح، وليست العربية بالمعقدة وهي لغة خير الكتب السماوية { **ولقدْ يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر** } [6]، ولعل العلة في أصحاب اللغة الذين رأوا في لغات الآخرين منفذ اً لبلوغ بعض الغايات و"المغلوب مولع بتقليد الغالب "كما يقول ابن خلدون، هذا الانسلاخ هو نتيجة تأثير بعض اللغات على مفردات اللغة العربية.

إنّ التعدد اللساني يؤدي حتماً إلى الصراع اللغوي داخل المجتمع الواحد؛ ففي الهند مثلا توجد ثلاثة عشر لغة رسمية إلى جانب الهندية كلغة قومية والانجليزية كلغة وظيفية في المؤسسات ويضاف إلى ذلك ألف وستمئة واثنتان وخمسون لغة أولى، من بينها نحو سبعمئة لغة تنتمي إلى

أربع أسر لغوية مختلفة، وتكتب بعشرة أنماط كتابية، ما جعل من الهند مسرحاً للصراعات والنزاعات اللغوية.

الاستعمار اللغوي بين الاستدمار القديم والاحتلال الجديد: لقد كان للغزو الغربي للبلاد العربية تأثيراً مباشراً في زعزعة علاقة الهوية باللغة، ونشر نظرية الاستلاب الفكري والثقافي واللغوي لغرض تحقيق أهداف وغايات سياسية واقتصادية . والموضوع المتجدد طرحه اليوم هو ما يتعلق بإرث اهتمام المحتل القديم بمسألة اللغة للقضاء على الهوية الأصلية للشعب الجزائري المغتصب حقه وأرضه لتقوم مقامه لغة المستدمر وبالتالي ثقافته، ولا يكون ذلك مباشرة، بل يكون عن طريق خطط مدروسة جيداً، أهمها تشجيع اللهجات الجهوية والعرقية داخل المجتمع الواحد، والتي تعني اطراد اً تشجيع العامية (slangs) واعتمادها وجعلها بديلا عن اللغة العربية الفصحى، في سبيل تحقيق الهيمنة الثقافية والتمكين للغة المحتل .والجدير بالذكر أنّ هذه المحاولات أعطت فكرة حتى لأبناء اللغة العربية في بعض الأقطار العربية الذين تبنوا طرحاً جديدا يقضي بترقية اللهجات (العامية)لتصبح لغة وطنية عوضاً عن العربية الفصحى التي تعد في نظرهم قاصرة عن التأقلم مع وقتنا المعاصر، فظهرت على إثر ذلك العديد من الأقلام التي دعت الى ذلك، وهناك من ألّفوا كتباً في هذا المجال، وهناك من نادوا بإلغاء النحو العربي معتبرين أنه عائق أمام تعلم اللغة العربية ونادوا بالعربية الحديثة حسب زعمهم وهي لغة بسيطة تواصلية فقط تشبه لغة التعامل اليومي لا تحس فيها بتلك الحلة البلاغية التي كانت تكسوا العربية في زمن الفصحاء، أي أنهم دعوا إلى لغة التواصل عوضاً عن لغة الهوية والحضارة.

لقد حاول المستعمر سلخ الهوية العربية من الشعب الجزائري، وقام بكل ما من شأنه أن يخدم ذلك، ولم يبق إلا بعض المدارس الدينية التي تهتم بتحفيظ القرآن ظناً منه أنّ اللغة العربية لا بد أنْ تحصر في التعليم الديني الاسلامي. ففي بدايات القرن 19 قامت فرنسا بإنشاء مؤسسات استشراقية تهتم باللهجات العامية، وهو أمر يحتاج الى بعد نظر في التحليل والتفسير، وتم إنشاء "مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس"، وأنشئت معاهد عليا لدراسة اللهجات العربية العامية، وصنفت كتب ومعاجم في هاته اللهجات، ومنها كتاب بعنوان" قواعد العربية العامية " ل"كوسي "نشر في عام 1821 م، ولا شك أنّ لهذه الظاهرة أسباب وأغراض وغايات محددة؛ ذلك أنّ اهتمام المستدمر بدراسة اللهجات العربية لم يكن بريئاً أو تشجيعاً للبحث اللغوي الإتيمولوجي بقدر ما كانت له أبعاد اً أخرى تجارية وسياسية واستيطانية .فالمستدمر دعا إلى ضرورة تعلّم اللغة العصرية "الحية "أو" العامية التواصلية "وليس اللغة القديمة" الميتة "أو" البلاغية

الرسمية الفصيحة"، فقد رغّب في تعليم لغة ذات فائدة سياسية واقتصادية وجغرافية. وقد حاولت فرنسا بعد غزو الجزائر تنفيذ مخططاتها التفكيكية بضرب المنظومة اللغوية، حيث سعى المحتل من خلال انشاء المدارس الفرنسية وغرس ثقافته بما تحمله من مقومات لطمس الشخصية الاجتماعية والحضارية للشعب الجزائري، والتشكيك في هويته من خلال فكرة" الأثنية "وبالتالي التأسيس لهوية جديدة متعددة الأعراق. وقد كان للتخطيط اللغوي المنتهج من قبل المحتل غايات محددة تهدف إلى إضعاف اللغة العربية وإقصائها من التعليم والحط من شأنها دينياً وثقافياً، فقام بتشجيع العامية في التدريس في نفس الوقت الذي تُدرّس فيه المقررات باللغة الفرنسية كلغة حضارة وثقافة راقية.

الصراع اللغوي: يتفنن كل غزو استعماري في محاربة لغة المحْتلْ واستبدالها بلغته، لتحقيق أغراض سياسية واقتصادية مختلفة، يقول شارل ديغول" : لقد صنعت لنا اللغة الفرنسية ما لم تصنعه لنا الجيوش"(7) . والواقع يثبت ما فعلته اللغة الفرنسية ولا تزال بالمشهد الثقافي واللغوي العام في الجزائر من هيمنة مفرداتها على اللغة العربية وحتى على اللهجات المحلية ناهيك عن الاستعمال الكبير للفرنسية في الدوائر الرسمية، ووسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة، في الحصص التلفزيونية وأفلام الرسوم المخصصة للأطفال بل وكتب وقصص الأطفال أيضاً، وحتى في المؤسسات التعليمية المختلفة سيما في تخصصات الرياضيات والفيزياء والعلوم التقنية والطبية، والمؤسسات التعليمية الخاصة ودور الحضانة، كما نجد الفرنسية أيضاً في واجهات المحلات وإشارات المرور وغيرها، كما تسعى الشركات الاستثمارية في وضع شعارات باللغة الفرنسية لجذب الزبائن إلى منتجاتها وغالباً ما تسخّر لذلك مختصون في السياسات اللغوية الذين يبتكرون عبارات جذابة ترمز لجودة علامتهم التجارية، إلا أنّ البعض يجهل تلك المقاصد ويقوم بشراء تلك المنتجات دون أدنى خلفية معرفية أو ثقافية، المهم بالنسبة له هو العلامة التجارية للشركة العالمية المشهورة. وهناك بعض العائلات التي تأثرت بالمدرسة الفرنسية الاستعمارية لا تزال تلقّن أبنائها أبجديات اللغة الفرنسية داخل الأسرة، بحيث هناك من يتكلمون بالفرنسية ويتواصلون بها مع أولادهم بصفة عادية، ونجد هذا الأمر منتشر بكثرة في المدن الكبرى بخاصة، أين نجد إضافة إلى ذلك العديد من فئات المجتمع يتواصلون باللغة الفرنسية وبصفة عادية لا تبعث على الدهشة إطلاقاً، وهذا الأمر أصبح من الأمور العادية المتوارث، حتى أضحى اللسان المفرنس –عند الكثيرين– رمزاً للتحضّر والثقافة والمدنية. ولم يبقى الأمر عند هذا الحد فقط، بل نجد حتى الأعمال الأدبية لكبار الروائيين والمفكرين بل والمثقفين النخبة تحاكي إلى حد ما النموذج الثقافي للغة الفرنسية لهيمنة هذه اللغة على ذهنيات الكتّاب والمفكرين الذين تأثروا بالتيارات الأدبية

والثقافية ذات الإيديولوجيات المختلفة، حتى أنّ غالبية المثقفين في الجزائر يتكلمون الفرنسية بطلاقة في حين أنهم يسقطون سقطات لغوية فادحة ويلحنون كثيراً عندما يتحدثون باللغة العربية الفصيحة، بل إنّ هذا الأمر تعدى إلى حدود لغوية أخرى أو ما يسمى بـ"التحول اللغوي "أين نجد المتكلم باللغة العربية يجد صعوبة في تكوين" تفاهم متبادل " فيلجأ إلى حشو كلامه باللغة الفرنسية لتبسيط أو تطوير خطابه، ومن ناحية أخرى تواجه اللغة العربية صراعاً لغوياً مع اللهجات المحلية التي تعتبر بالنسبة للطفل لغة مكتسبة أي " اللغة الأم "التي يستخدمها في تواصله اللغوي اليومي، أمّا اللغة العربية فهي تمثل لغة تعلم وليست لغة تواصل يومي، هذا ما يجعل اهتمامات الطفل بها لا تعدو أنْ تكون أكاديمية لا غير، وغالباً ما تكون الغلبة للهجة على حساب الفصحى في معركة الصراع اللغوي بينهما؛ فهيمنة اللهجات على التواصل اليومي انتقل حتى إلى الجانب التعليمي الأكاديمي، حيث يضطر مدرس لغة أجنبية أو مادة الترجمة أن يستعين بمفردات اللهجة لتوصيل الفهم الصحيح للمتعلمين الذي يجدون سهولة في اعتمادهم على الترجمة الذهنية عن طريق لهجة التواصل اليومي.

إنّ هيمنة اللهجات المحلية على الجو اللغوي العام أدى إلى تحول بعض اللهجات إلى لغات نتيجة تعذر" الفهم المتبادل "الذي نجده أكثر في طبقة الأميين الذين لا يستطيعون التواصل باللغة الأم التي هي اللغة العربية، التي رغم كل هذه التجاذبات فهي تحافظ على وجودها نتيجة ارتباطها بالقرآن الكريم، يقول الحق سبحانه وتعالى{ إنّا نحن نزلْنا الذكْر وإنا له لحافِظون8 }، فلا خطر على اندثار اللغة العربية لأنها لغة مقدسة لكن الخطر يكمن في استعمالها الذي أصبح يتضاءل تحت غزو اللغات الأجنبية من جهة وهيمنة اللهجات المحلية من ناحية أخرى.

تكنولوجيا التواصل: يعيش العالم المتقدم ثورة تكنولوجية مكّنته من اكتساح العديد من الدول النامية في العالم المتخلّف تكنولوجياً وعلميا ، حيث أصبحت الأمم الضعيفة تخشى الغزو التقني الذي أفرز نوعاً جديداً من الغزو الثقافي واللغوي الذي جعل شعوبها تندمج ثقافياً ولغوياً في ثقافات الحضارات القويّة، وبالتالي أصبح التعامل بلغة الآخر يشكل أزمة وجودية بالنسبة لتلك الأمم.

وفي ظل تقنيات التواصل أصبحت المعركة الفكرية تتعدى المظاهر اللغوية عن طريق فنون التواصل مِنْ خلال وسائل الاتصالات المختلفة، وظهرت توجهات جديدة للاستعمالات اللغوية؛ فاللغة الفصحى لم تعد وسيلة تواصل بين مختلف شرائح المجتمع، وحلت مكانها" اللغة التواصلية"؛ وهي نوع جديد من الرموز والأصوات اللغوية ابتكرها مستعملو الأنترنيت، وبخاصة مواقع الدردشة

والتعارف والتواصل المختلفة عن طريق أجهزة الكمبيوتر أو أجهزة الهواتف المحمولة، وهناك من يسمي هذا الخلط اللغوي باللغة الهجينة وآخرون يطلقون عليها مصطلح" الابتداع اللغوي"، حتى الأجهزة التقنية وإنْ عرّبَت مسمياتها المجامع اللغوية العربية، إلا أنّ العربي يفضل أنّ يسميها بمسمياتها الأصلية، حيث أصبح استخدام اللهجة العامية والحروف اللاتينية والهجينة بالأرقام عادة في التواصل الرقمي الكتابي بديلا عن الحروف العربية رغم أنّ الخطاب التواصلي بالعربية أمكن؛ ومن أمثلة ذلك Slm 3alaikm..flixili..bipili..saba1 el1'eir:، هذا ما جعل الهوية اللغوية لهؤلاء معقدة إلى درجة التهميش من الآخر لأنّ "كل من يتبنى هوية أكثر تعقيد اً يجد نفسه مهمشًا"(9) لأنه لا يمكن أنْ تكون لشخص واحد هويات متعددة؛ فالهوية "لا تتجزأ أبداً، ولا تتوزع أنصافاً، أو أثلاثاً، أو مناطق منفصلة، فكل إنسان له انتماء واحد هو حقيقته العميقة بشكل ما، جوهره يتحدد عند الولادة مرة وإلى الأبد)...(كما أنّ مسيرته كرجل حر، وقناعاته المكتسبة، وتفضيلاته، وحساسيته الخاصة، وميوله، وحياته كمحصلة لا تهم في شيء، وعندما نحث معاصرينا على تأكيد هويتهم، فما نقصده هو أنّ عليهم أنْ يجدوا في أعماقهم ذلك الانتماء الأساسي المزعوم الذي غالباً ما يكون دينياً أو قومياً أو عرقياً أو إثنياً ليرفعوه بفخر في وجه الآخرين"(10) ؛ مما يعني أنّ الهوية شرف الفرد داخل مجتمعه الذي ولد فيه ونشأ على مقوماته المختلفة، ومهما تلقّى من ثقافات أخرى، أو جال في جغرافيات مختلفة، إلا أنّ جوهره الحقيقي يرتبط بهويته الأصلية.

إنّ" التحلّل اللغوي "هو تحلّل من الهوية التي بدأت تعرف اضطراباً اصطلاحياً، وأصبح مفهومها يتعدى الطرح الفلسفي والاجتماعي في ظل العولمة الالكترونية، ومن ناحية أخرى يظهر ما يسمى بـ" :البراغماتية اللغوية" التي تميّز بها هذا العصر، والتي انتشرت انتشاراً واسعاً في ظل تكنولوجيا التواصل الرقمي، فأصبح العربي يتعلم مفردات معينة من اللغة الأم لغاية نفعية، وظهر على إثر ذلك مدارس تتبنى هذا التوجه ووصل الأمر حتى المؤسسات الجامعية التي أصبحت بها مجالات لتدريس ما يمكن أنْ نصطلح عليه بـ"تعليمية التخصص اللغوي "أو" تعليمية اللغة المتخصصة"، حيث أصبح تعلم اللغة يقوم على حسابات ومعايير تختص بثقافة وتخصص ورغبة المتعلم، والذي يسعى إلى اختيار المفردات والجمل التي تخص تخصصه أو رغبته . وربما أمكن لبعض المشتغلين بتعليمية اللغات أنْ يبتكروا طرقاً جديدة تمكّن من ذلك بالاعتماد على مناهج ومعايير محددة، على سبيل المثال :الفرنسية التقنية؛ وهي امتداد لابتكار آخر سبقها يتمثل في

القاموس أو المعجم المتخصص، هذا ما جعل اللغة تنحصر في زاوية ضيقة، فما نقص استعماله سيصبح مع مرور الزمن مهملا ، وربما ينسى ويدخل في زمرة" غريب اللغة."

وبين مصطلح وآخر تتجلى أزمة الهوية اللغوية التي تظهِر كيف يهمل العرب لغتهم وخاصة اللغويون الذين كان ولا بد أنْ لا يتركوا الأمر يتفاقم ويصل إلى ما هو عليه اليوم وغداً، فكما يقول" بيل غيتس "مؤسس شركة ميكروسوفت للمعلوماتية في مقدمة كتابه" المعلوماتية بعد الأنترنيت" "وهذا الكتاب الذي أضعه بين يدي القارئ الآن، قصدت به أنْ يكون كتاباً جادّاً بالرغم من أنه قد لا يبدو كذلك بعد عشر سنوات من الآن"(11)، فالتكنولوجيا دوما في تجدد وتطور مستمر، وقد تبتكر لغة جديدة للاستعمال التواصلي تكون بديلا عن كل لغات العالم وهذا غير مستبعد، كما استخدم مصنعو البرامج المعلوماتية لغات الكمبيوتر المختلفة كـ Basic " "وغيرها فليس مستبعدا أو مستحيلا أن يبتكروا لغة جديدة تلائم المتطلبات التكنولوجية في تقنيات التواصل المستقبلية.

إنّ على اللغويين أنْ يسعوا لإصلاح هذا الخلل الذي يهدد تركيبة المجتمع ثقافياً ولغوياً وتاريخياً، وعليهم أنْ يطورا تقنيات تعليم اللغة العربية في المدارس ويتحولوا عن تلك المعايير التقليدية التي لا تصلح للفرد اليوم، فإنسان الأمس ليس هو رجل اليوم، فالحياة تغيّرت وتطورت واقتضت مجالاتها أنْ تساير الأمم هذه التكنولوجيا وتستثمرها لخدمة هويتها ووجودها، فالغرب اليوم يحس بعجزه البيولوجي تجاه ديموغرافية الوطن العربي التي دوما في تصاعد، لذلك فهو يحاول استخدام تقنيات فكرية ومادية عن طريق ابتكار مصطلحات وهمية للتخويف من المستقبل كـ"التنمية المستدامة "وامكانية نفاذ الثروات الطبيعية في سبيل بيع تكنولوجيته للدول النامية وتسويق أفكار تخويفية غرضه الأساس منها هو تمكين غلبة مبدأ" البقاء للأقوى "وليس للأصلح، لذلك يشهد العالم العديد من بؤر التوتر التي تبتكرها سياسات تدميرية للشعوب الضعيفة التي تملك الثروة، ومن ناحية أخرى يسعى القائمون على السياسات العالمية على تجسيد" الاستلاب الفكري "والاستقطاب الثقافي "للنخبة المتميزة في الوطن العربي، فما عجزت عنه الماسونية في بعض الجوانب تعوضه العولمة، والتاريخ دوماً يعطينا مشاهداً عن ما يفعله القوي بالمهزوم في بلده، لكن بوجهين مختلفين؛ الولايات المتحدة بعد حادثة" بيرل هاربر " قصفت اليابان بقنبلتين نوويتين لا تزال آثارهما إلى يومنا هذا، لكن في المقابل نقلت علماء الألمان والمصانع المدنية والعسكرية بتجهيزاتها المختلفة من ألمانيا إلى الولايات المتحدة للاستفادة من تطورهم التكنولوجي في المجالات المختلفة؛ واليوم يحاول الغرب ومن وراءه العلمانيون أنْ يؤسسوا لعالم جديد، وعلمانيو اليوم أكثر

شراسة من علمانيي الأمس، فعلمانيو الأمس ثاروا على الكنيسة التي كانت تعتبر العلم كفراً لا بد أنْ يُقتل صاحبه، هذه الفكرة التي زرعها اليهود في الفكر الكنائسي بدعوى أنّ الشجرة التي حذّر الله منها وأكل منها آدم هي شجرة المعرفة، وصدّق المسيحيون آنذاك هذه الاسرائيليات وحدث ما حدث من قتل للعلم والعلماء، وبعد سقوط الفكر الكنائسي ظهر الفكر اللاديني والذي نما وترعرع في ظل الحروب العقائدية وتطور إلى أنْ وصل إلى الحرب الفكرية التي تتخذ من الجو الثقافي العام أرضاً خصبة لفرض منطق فكري ثقافي يتبنى الطرح الشمولي في ضوء سياسة العولمة التي تغذي كل التجاذبات الفكرية عامة والثقافية خاصة في سياق معالمها الاحتوائية لثقافات الشعوب الضعيفة.

وفي ظل العولمة أيضا نجد نوعاً آخر من الأهداف الخفية لها وهي استخدام الاعلام الغربي الناطق بالعربية في دعم محورية الثقافة في منظومة المجتمع المعاصر؛ هذا النوع من القنوات في ظاهره المعلن تقديم إعلام للجالية العربية بالخارج لكن خفيّه يدخل ضمن الأبعاد اللغوية للعولمة، في محاولة لاستغلال اللغة بغية إحداث خرق في الوعي العربي وبث ثقافة الغير على أنها ثقافة راقية لشعب راق.

خاتمة:

إنّ المشكلة الحقيقية للأمة العربية لا تكمن في اللغة ذاتها بل في الإنسان العربي الذي يعيش مرحلة انبهار بالآخر وشعوراً بالنقص من ذاته وانتمائه، فيمارس هذا الهروب لغويا وثقافياً في اعتقاد منه أنه يسير على خطى الحضارة والتميز والطريق إلى الرقي.

وأكبر المشاكل التي تتعرض لها الهوية اللغوية اليوم هي مشكلة" اللهجات العامية "والتي اتصلت بالتكنولوجيا الحديثة وخاصة في ميدان تقنيات التواصل ناهيك عن اللغة الهجينة التي تستعمل في المجالات الأكاديمية والإعلامية والتي غالبا ما تكون إمّا فصحى مع عامية أو عامية مع فرنسية. ومن جانب آخر نجد إغفال المؤسسات التعليمية لدورها الأساس في الحفاظ على الهوية اللغوية؛ فالواقع يبين أنّه حتى الأكاديميين في التخصصات الإنسانية والاجتماعية والأدبية يستخدمون في دروسهم عربية ليست بالفصيحة ولا بالعامية، تسكين في أواخر الكلمات تجنّباً للحركات النحوية، شيوع اللحن وغيرها من الأمور التي تُظهر زهد هؤلاء في الاهتمام بلغتهم، لذلك وجب الاعتناء باللغة في المؤسسات التعلمية والتدريس بالفصحى ومعاقبة من يستخدم غيرها.

لقد سعى بعض الغيورين على الهوية اللغوية كي يحافظوا على أقدس لغة في الكون؛ ومنهم العالم الجزائري عبد الرحمن حاج صالح رئيس مجمع اللغة العربية، والذي يعمل على مشروع ضخم سماه بـ"الذخيرة العربية"، وهو بنك معلومات يحوي كل ما يتعلق باللغة العربية وكل ما يكتب أو ينشر يوميا بالاعتماد على الحاسوب الذي يضطلع بعملية رصد واحصاء البيانات بصورة آلية بنفس الطريقة التي يعمل بها محرك البحث المشهور" غوغل"، وهذا كله من شأنه الاسهام في رفع المستوى العلمي والثقافي للمواطن العربي. مثل هذه الجهود من شأنها أنْ تسهم في إصلاح مجالات مختلفة كالمعجمية الحديثة والتعريب الآلي والحوسبة النصية والتثاقف اللغوي وغيرها من المجالات المتعلقة بالتكنولوجيا الرقمية.

إنّ العرب اليوم هم في وقت أحوج ما يكونوا فيه من المحافظة على هويتهم بالحفاظ على لغتهم، فهي اللغة الوحيدة التي عمّرت أكثر من سبعة عشر قرناً دون أنْ يموت استعمالها، والغرب أدرى بذلك، والسياسات الحديثة تضع ذلك في الحسبان فلا عجب أنْ يعود الاحتلال في شكل استعمار لغوي عن طريق الغزو الثقافي والتكنولوجيا الحديثة وسياسات الاستقطاب للكفاءات والنخب العلمية العربية.

هوامش البحث:

1 : ابن جني، الخصائص، تح : محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، دط، 1957 م، ج5 ، ص 30.

2 : بسام بركة، اللغة العربية القيمة والهوية، مجلة العربي، العدد 522 ، نوفمبر 2002 ، ص84.

3: ابن خلدون، المقدمة، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، دط، 2002 م، ص256.

4 :سورة يوسف، الآية 2.

5 :سورة طه، الآية 113.

6 :سورة القمر، الآية 17.

7: نقلاً عن عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، دار عالم الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط 5، 2001م، ص 45.

8: سورة الحجر، الآية 9.

9: أمين معلوف، الهويات القاتلة" قراءات في الانتماء والعولمة"، ترجمة :نبيل محسن، ورد للطباعة والنشر، دمشق، سورية، ط 1، 1999م، ص 10.

10: نفسه، ص 7 و 8.

11: بيل غيتس، المعلوماتية بعد الأنترنيت، ترجمة :عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 231، مارس 1998م، ص10.